المبحث الخامس
وفاة الخليفة القائم بأمر الله وتولي أمر الخلافة المقتدي بالله

أولاً: وفاة الخليفة القائم بأمر الله:

في عهد السلطان ملكشاه وفي سنة 467هـ [1]توفي أمير المؤمنين القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله ابن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد العباسي البغدادي، كان مولده في سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وأمه أرمينية تُسمى بدر الدجى وقيل: قطر الندى، كان رحمه الله جميلاً وسيماً أبيض بحمرة ذا دين وخير وبر وعلم وعدل بويع سنة اثنتين وعشرين وأربع مائة، وأنه نكب سنة خمسين في كائنة البساسيري، ففرّ إلى البرية في ذِمَام أمير للعرب، ثم عاد إلى خلافته بعد عام بهمة السلطان طغرل بك، وأُزيلت خطبة خليفة مصر المستنصر بالله من العراق وقتل البساسيري [2] - وقد مرّ ذلك مفصلاً. ظهر عليه مَاشَراً [3] فافتصد ونام، فانفجر مضاده، وخرج دم كثير، وضعف، وخارت قواه، وكان ذا حظ من تعبد وصيام وتهجد، لما أعيد إلى خلافته قيل: إنه لم يسترد شيئاً مما نُهب من قصره، ولا عاقب من آذاه، واحتسب وصبر. وكان تاركاً للملاهي - رحمه الله - وكانت خلافته خمساً وأربعين سنة وغسله شيخ الحنابلة أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي، وعاش ستاً وسبعين سنة، وبويع بعده ابن ابنه المقتدي بالله [4].

ثانياً: خلافة المقتدي بالله:

هو أبو القاسم عدّة الدين عبد الله بن الأمير ذخيرة الدين محمد بن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن القادر العباسيُّ وأمه أرمينية تسمى أرجوان، وتدعى قرَّة العين، وأدركت خلافته وخلافة ولديه: المستظهر والمسترشد، وقد كان أبوه توفي وهو حمل، فحين ولد ذكراً فرح جده والمسلمون به فرحاً شديداً؛ إذ حفظ الله على المسلمين بقاء الخلافة في البيت القادري؛ لأنَّ من عداهم يبتذلون في الأسواق مع العوامَّ، وكانت القلوب تنفر من تولية مثل أولئك الخلافة على الناس، ونشأ هذا في حجر جدَّه القائم بأمرالله يرُبيه بما يليق بأمثاله، ويدربه على أحسن السجايا، وكان عمر المقتدي حين ولي الخلافة عشرين سنة وهو في غاية الجمال خلْقاً وخُلُقاً، وكانت بيعته يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان من هذه السنة، وجلس في دار الشجرة بقميص أبيض، وعمامة بيضاء لطيفة،... وجاء الوزراء والأمراء والأشراف ووجوه الناس فبايعوه، فكان أوَّل من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الحنبلي وأنشده قول الشاعر:

إذا سَيِّدٌ منا مضى قام سيِّدٌ

ثم أُرتج عليه فلم يدر ما بعده، فقال الخليفة:

قؤول لما قال الكرام فَعُولُ

---

(1) سير أعلام النبلاء (318/18).
(2) المصدر نفسه (307/18).
(3) الماشرا: في عرف الأطباء ك ورم حارّ عن دم صفراوي يعم الوجه.
(4) المصدر نفسه (308/18).

وبايعه من شيوخ العلم الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، والشيخ أبو نصر بن الصَّباغ الشافعيان، والشيخ أبو محمد التميمي الحنبلي، وبرز فصلَّى بالناس العصر، ثم بعد ساعة أخرج تابوت جده بسكون ووقار من غير صراخ ولا نواح فصلَّى عليه وحمل إلى المقبرة - رحمه الله - وقد كان المقتدي بالله شهماً شُجاعاً، أيامه كلها مباركة، والرزق دار، والخلافة معظمة جدّاً، وتصاغرت الملوك له، وتفاءلوا بين يديه، وخطب له بالحرمين وبيت المقدس، والشامات كلها، واسترجع المسلمون الرُّها وأنطاكية من أرض العدو، وعُمِّرت بغداد وغيرها من البلاد، واستوزر ابن جهير ثم أبا شجاع، ثم أعاد ابن جهير وقاضيه الدّمغاني، ثم أبو بكر الشامي، وهؤلاء من خيار القضاة والوزراء ولله الحمد [1]، وفي شعبان من خلافته أخرج المفسدات من الخواطئ من بغداد على حُمُرات ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة، وخرَّب دورهن وأسكنهن الجانب الغربيَّ، وخرَّب أبرجة الحمام، ومنع من اللعب بها، وألزم الناس بالمآزر في الحمّامات ومنع أصحاب الحمّامات أن يصرفوا فضلاتها إلى دجلة وألزمهم بحفر آبار لتلك المياه القذرة صيانة لماء الشرب [2].

ثالثاً: تدهور العلاقة بين ملكشاه والمقتدي:

أخذت علاقة الخليفة بالسلطان تسوء شيئاً فشيئاً، وكانت بداية هذه الانتكاسة تعود إلى سوء التفاهم الذي وقع بين المقتدي وزوجته خاتون ابنة السلطان ملكشاه سنة 482هـ وقد تطور هذا الخلاف وانكشف أمره عندما أخبرت خاتون أباها بالأمر وشكت له أعراض المقتدي عنها، وعلى الفور أرسل السلطان إلى الخليفة يطلب ابنته التي توجهت إلى بيت أبيها في أصبهان بموكب يليق بها مع ابنها الأمير أبي الفضل جعفر ابن المقتدي وما كادت تستريح في بيت والدها حتى فارقت الحياة في السنة نفسها، فتمت التعزية بها في أصبهان ومدينة بغداد، وبدأ السلطان ملكشاه من الآن فصاعداً يخطط لإزعاج الخليفة والانتقام منه عندما تسنح الفرصة [3].

وفي سنة 484هـ دخل السلطان مدينة بغداد ومكث في دار المملكة حتى يكون على مقربة من المقتدي، الذي بدأ نفوذه يتقلص أكثر فأكثر حتى لم يعد له من الأمر إلاَّ الاسم، لا يتعدى حكمه بابه ولا يتجاوز جنابه [4]، وأقام السلطان أيضاً عيد ميلاده على نهر دجلة واشتركت بغداد بزينة باهرة في هذه المناسبة، في البر والنهر، وبعد كل ما جرى من تحطيم لمعنويات المقتدي، أقدم السلطان ملكشاه على التدخل المباشر في مصير الخلافة العباسية، وطلب من المقتدي أن يجعل أبا الفضل جعفراً ابن بنت السلطان وليًّا لعهده بدلاً من ابنه الأكبر الإمام المستظهر بالله الذي كان المقتدي قد بايع له بالخلافة من بعده [5]، وحاول الخليفة أن يتملص من هذا الأمر، إلا أن السلطان كان مصمماً على الانتقام من المقتدي وإجلائه نهائياً عن مدينة بغداد، فحين دخلها سنة 485هـ، بعث إلى الخليفة

(1) البداية والنهاية (49/16، 50).
(2) البداية والنهاية (51/16).
(3) المنتظم (47/46/9) الحضارة الإسلامية في بغداد، محمد حسين ص 37.
(4) المنتظم (57/9).
(5) وفيات الأعيان (288/5).

يقول لـه: لا بد أن تترك لي بغداد وتتصرف إلى أي البلاد شئت، فانزعج الخليفة من هذا انزعاجاً شديداً ثم طلب من السلطان أن يمهله شهراً واحداً فرفض السلطان وقال : ولا ساعة واحدة. ثم اتصل الخليفة بوزير السلطان تاج الملك أبي الغنائم الذي تمكن من إقناع السلطان أن يمهل الخليفة عشرة أيام كي يرتب أموره ويرحل إلى البصرة أو إلى أي بلد يختاره[1]. وهكذا حل بالمقتدي ذل وهوان لا مثيل لـه في حياته كلها وهو لا يستطيع أن يرد عن نفسه ولا يستطيع أن يقف في وجه ملكشاه، فالتجأ إلى ربه يدعوه ليلاً ونهاراً أن يفرج عنه ويخرجه من هذا المأزق وكان يقوم الليل ويصوم النهار خاشعاً متضرعاً إلى الله تعالى وفي هذه الفترة خرج السلطان إلى الصيد فعاد مريضاً ومات قبل أن تنتهي فترة الإنذار التي أعطاها للخليفة وعد هذا الأمر كرامة للمقتدي، وقد تخلص من عار محقق ومأساة واقعة، وهكذا وصل الخليفة إلى درجة من الضعف لا يحسده عليها عدو[2]. وقد علق ابن كثير على دخول ملكشاه إلى بغداد وإرادته إخراج الخليفة منها بقولـه: وقدم السلطان بغداد في رمضان بنية غير صالحة، فلقَّاه الله في نفسه ما يتمنَّاه لأعدائه، وذلك أنه لما استقر ركابه ببغداد، وجاء الناس للسَّلام عليه والتهنئة بقدومه، وأرسل إليه الخليفة يهنِّئه بعث إلى الخليفة يقول لـه: لابد أن تترك لي بغداد وتتحَّول إلى أيَّ البلاد شئت، فأرسل إليه الخليفة يستنظره شهراً، فقال: ولا ساعة واحدة، فأرسل يتوسل إليه في إنظاره عشرة أيام، فأجاب إلى ذلك بعد تمنُّع شديد، فما استتّم الأجل حتى خرج السلطان يوم عيد الفطر إلى العيد، فأصابته حُمَّى شديدة، فافتصد فما قام منها حتى مات قبل العشرة أيام ولله الحمد والمنة[3].

وبموت السلطان ملكشاه انقضى العصر الذهبي للسلطة السلجوقية وبدأ عهد الانقسامات السياسية والحروب بين ورثة العرش السلجوقي مما أدى إلى تشتيت صفوفهم وإضعاف سلطتهم ولكن رغم هذا الضعف فقد حرص سلاطين السلاجقة على الاستئثار بالسلطة دون الخلفاء وكانوا ينتهزون كل فرصة للتعبير عن هذه الرغبة [4]، وقبل الحديث عن عهد تدهور الدولة السلجوقية لا بد من الإشارة إلى شيء من سيرة نظام الملك رحمه الله.

رابعاً: نظام الملك:

قال عنه الذهبي: الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير سعيد متدين، محتشم، عامر المجلس بالقّراء والفقهاء، وإنشاء المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم وأدّر على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته [5] تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت

(1) المنتظم (62/9) الحضارة الإسلامية في بغداد ص 39.
(2) وفيات الأعيان (8389/5) الحضارة الإسلامية في بغداد ص 39.
(3) البداية والنهاية (122/16، 123).
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ص 40.
(5) سير أعلام النبلاء (94/19).

الكبار إلى جانبه[1]، وأشار إلى ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد، ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نور الدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر، والجزيرة، قال عنه ابن كثير: من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة [2]، وقام ولده عماد الدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الإسلامي [3]، وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قواد السلطان محمود السلجوقي، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة 520هـ قتله الباطنيون، وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل، قال عنه ابن الأثير: وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاء، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً [4]. ويحدثنا المؤرخ أبو شامة من آثار السلاجقة لا سيما في زمن نظام الملك: فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها[5].

1- ضبطه لأمور الدولة: لما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال الناس وقالوا : ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض الناس لأذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، وبين له ما في هذا الفعل من الضعف، وسقوط الهيبة والوهن ودمار البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: أفعل في هذا ما تراه مصلحة، فقال له نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل إلاّ بأمرك، فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد، وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهرت من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فتوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجّابه، فأنكر ذلك عليه، وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والأعيان لا حاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابته[6].

2- التصور النظري للدولة عند نظام الملك: كان النظام مؤمناً بالإسلام مقدساً لتعاليمه كما كان شغوفاً بعلومه محترماً لأعلامه حتى صار دينه ودولته على السواء، وأن كلاّ منهما يكمل الآخر كما تستكمل الأرض بالسماء.. ولفرط تهميش النظام للدين وشدة دفاعه عن الدولة يحار فإنه يرى الدولة وسيلة من وسائل نشر الإسلام وإذاعته بين الناس وقد ظهر علماء كرام في عهد النظام، بينوا ارتباط الدين بالدولة، بحيث صار وسيلة لها وغاية في آن معا.

---

(1) المصدر السابق (95/19).
(2) البداية والنهاية (157/12).
(3) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص 68.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه؟ ص 68؟
(5) الروضتين في أخبار الدولتين نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه؟.
(6) الدولة العثمانية للصَّلابي نقلاً عن الكامل في التاريخ.

فالإمام الغزالي والماوردي يقولان: إنه ليس دين زال سلطانه إلاّ بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة، كما أن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهل الطاعة فيه فرضاً والتناصر له حتماً [1]. وقيل: الدين أس والسلطان حارس، وما لا أس له فمهزوم وما لا حارس له فضائع [2].

وشاعت هذه المقولة أيضاً في شرق العالم الإسلامي وأخذ يرددّها الطرطوشي وابن خلدون[3]وغيرهم في غربه [4]... وبذلك الدافع من إيمانه القوي في الدين واعتقاده الراسخ في إصلاحه للحياة الفانية، وبذلك اليقين من أعماق نفسه بضرورة الدولة العادلة لرعاية الناس وإسعادهم كتب رسالته في السياسة ووضع فيها الأسس العامة للدولة الجديدة التي كان ولم يزل يدأب من أجلها ويضع الخطط اللازمة لتكوينها[5]، وما كان النظام خيالياً حالماً وهو يخطط لمعالم دولته المنشودة، كمن يرسم صورة زيتية على ورقة بيضاء استجابة لداعي الفن أو كمن سبقه من أصحاب الجمهوريات والمدن الفاضلة وإنما كان أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال [6]، وقد انطلقت رؤيته للدولة من أصول المذهب السني والتي نظّر لها علماء عصره، كالغزالي والجويني - وهؤلاء دعمهم النظام دعماً معنوياً ومادياً يأتي بيانه في محله بإذن الله تعالى، وقد كان سلاطين السلاجقة الأوائل يدينون بالإسلام وكانوا في أشد الحاجة لفهمه ولذلك فقد حاول وزيرهم الكبير نظام الملك - أن يوجه عنايتهم إلى العلم، وحرمتهم للعلماء [7] فقد تكلم في الكتاب عن السلطان وعن واجباته واختصاصه، وعن خزينة الدولة والمراسيم السلطانية، والحاشية السلطانية، والمائدة السلطانية، والاستقبالات السلطانية، والحرس السلطاني، وناظر الخاصة، والوزير والوزارة، والموظفون في الدولة، والسفراء بين الدول، القضاة والقضاء، والمحتسبون للمراقبة، والولاة وأمراء الإقطاع، والغلمان والتجنيد، والجيش وإعداده، والألقاب وتحديدها[8].

3- اهتمام نظام الملك بالتنظيمات الإدارية: اهتمام نظام الملك بالتنظيمات الإدارية فكان اليد الموجهة لأداء الدولة في عهد السلطان ألب أرسلان، واتسعت سلطاته في عهد السلطان ملكشاه[9]، فأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية بشكل كبير، مستفيداً من فهمه ومعرفته لنظم الإدارة، وقد تضمن كتاب " سياست نامة " الذي ألفه هذا الوزير في الآراء والنظريات الإدارية التي تعتبر أساساً لنظام الحكم وإدارة الدول والممالك [10]، ويظهر من خلال كتاب " سياست نامة " أهم

(1) أدب الدين والدنيا ص 115، نظام الملك ص 412.
(2) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص 135.
(3) المقدمة ص 115، نظام الملك ص 413.
(4) نظام الملك ص 413.
(5) نظام الملك ص 413.
(6) نظام الملك ص 413.
(7) المصدر نفسه ص 415.
(8) المصدر نفسه ص 409 إلى 451.
(9) نظام الوزارة في الدولة العباسية، د محمد الزهراني 172.
(10) المصدر نفسه ص 172.

الطرق الإدارية التي اتبعها الوزير نظام الملك في إدارته للدولة السلجوقية، ويأتي في مقدمتها وقوفه بشدة ضد تدخل أصدقاء السلطان المقربين في شؤون الدولة، حتى لا يتسبب ذلك في اضطراب إدارتها[1]. كذلك كان يهتم بشكل خاص بالبريد الذي كان رجاله يوافون الحكومة بكافة أخبار البلاد الخاضعة لها [2].

هذا فضلاً عن حرصه الشديد على إرسال المخبرين إلى جميع الأطراف في هيئة التجار والسياح والمتصوفة والدراويش والعقارين [3]، يتنسموا الأخبار، ويرسلونها للسلطان أولاً بأول حتى لا يخفى عليه شيء من أمور مملكته [4]. وقد نجح نظام الملك في إحباط عدد من المؤامرات ضد الحكومة المركزية بفضل ما كان يصل إليه عن طريق أولئك المخبرين[5]، كما عمل نظام الملك على الحد من استغلال الموظفين والعمال لسلطاتهم حتى لا يرهقوا الرعية بالرسوم والضرائب الباهظة [6]، وكان يغير الولاة والعمال مرة كل سنتين أو ثلاث ضماناً لعدم تلاعبهم في أعمالهم [7]، ولما ألغى السلطان ألب أرسلان وظيفة " صاحب البريد " ووظيفة صاحب الخبر " [8]، رتب وزيره نظام الملك في كل مدينة رجلاً نزيهاً لمراقبة الوالي والقاضي والمحتسب ومن يجري مجراهم من الموظفين وموافاتهم بأخبارهم أولاً بأول، كذلك كان نظام الملك يدقق في اختيار الموظفين، فيختار من كان منهم أغزر علماً وأزهد نفساً وأعف يداً وأقل طمعاً. وكان يختار لوظيفتي " صاحب البريد " وصاحب الخبر" أناساً لا يرقى الشك إليهم لحساسية هذا العمل، ويتم تعيينهم من قِبل السلطان نفسه، وكان نظام الملك يصرف مرتبات مجزية لموظفي الدولة، خشية أن يضطر الموظف إلى الاختلاس من مال الدولة، أو يستغل منصبه ويتسلط على أموال الرعية[9]. كما كان حريصاً على مراجعة حسابات الدولة في نهاية كل عام لمعرفة الدخل والمنصرف والموازنة بينهما، ولكي يضمن هذا لنظام الملك تنفيذ خطته الإدارية بدقة استعان بعدد من كبار موظفي الدولة المخلصين والأكفاء، وكوّن منهم ما يشبه المجلس الاستشاري[10]، مهمته فيما يبدو - دراسة ما يعرض عليه من أمور هامة ووضع الحلول الملائمة لها، ومن ثم متابعة تنفيذها بدقة [11]، وكانت شؤون دولة السلاجقة قبل تولي نظام الملك الوزارة غير منظمة، فتطرق الخلل إلى إدارة الولايات التابعة لها، وساءت الحالة المالية فيها نتيجة لخراب أراضيها، ولعدم قيام المشرفين عليها بما تحتاج إليه من عمارة

(1) نظام الملك: سياست نامه ص 234.
(2) سياست نامه ص 102.
(3) العقارين: باعة العقاقير الطبية.
(4) سياست نامة 107.
(5) المصدر نفسه ص 107.
(6) المصدر نفسه ص 51، 52.
(7) المصدر نفسه ص 69.
(8) المصدر نفسه ص 102.
(9) نظام الوزارة في الدولة العباسية للزهراني ص 174.
(10) أخبار الدولة السلجوقية للحسين ص 68، 69.
(11) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 174.

وإصلاح، فلما جاء نظام الملك إلى الوزارة ونظم شؤون تلك الولايات، وعمر أراضيها، وأقر سلطة الدولة في النواحي التي كادت أن تخرج من حظيرتها.

4- نظـام الملـك والتفكيـر الاقتصـادي: كـان لنظـام الملـك دور هـام فـي إصـلاح الأراضـي الزراعيـة، وتنظيم توزيعها، فقد جرت العادة لدى الخلفاء والأمراء أن تجني الأمـوال في البلاد، وتجمع في العاصمة [1]، فلما اتسعت رقعة الدولة السلجوقية في عهد نظام الملك لاحظ أن دخل الدولة من خراج الأراضي الزراعية قليل لحاجتها إلى الاصلاح، فضلاً عن عدم اهتمام الولاة بها [2]، فوجد أن من الأصلح للدولة أن توزع النواحي على شكل إقطاعات على رؤساء الجند، على أن يدفع كل مقطع مبلغاً من المال لخزينة الدولة مقابل استثماره للأراضي التي أقعطت لـه، فكان هذا الإجراء سبباً في تنمية الثروة الزراعية إذ اهتم المقطعون بعمارتها مما أدى إلى زيادة إنتاجها، وظل هذا النظام قائماً حتى زالت الدولة السلجوقية [3]، ويلاحظ أن نظام الإقطاع في العهد السلجوقي يختلف كثيراً عن الإقطاع في العهد البويهي؛ لأن الإقطاع في العهد البويهي لم يكن عاماً شاملاً، ولم يشمل كل العسكريين، وكان الهدف منه تعويض الجند عن أرزاقهم المتأخرة، وليس الإصلاح الزراعي حتى أن بعض القواد البويهيين كانوا يخربون إقطاعتهم ثم يردونها ويعتاضون عنها بإقطاعات أخرى يختارونها من أجل تحسين دخلهم الشخصي لا دخل الدولة [4].

أما في العهد السلجوقي فيتعلق حق المقطع بخراج الأرض لا بالأرض ذاتها وليست لـه سيطرة على المشتغلين بها، كما أنه يخضع لسلطة الحكومة وعليه ألاَّ يسيء استعمال إقطاعه، كما يجوز نزع الإقطاع من المقطع إذا لم يقم بالالتزامات المفروضة عليه[5]، وكان الإقطاع في العهد السلجوقي لفترة محددة، لهذا عمل المقطعون جهدهم على تحسين إقطاعاتهم وتنظيمها والاستفادة منها، وتنفيذ جميع الالتزامات المفروضة عليهم كي يكسبوا رضا الحكومة ويستمروا في استثمار الأراضي التي اقطعت لهم[6]، وكذلك طلب الوزير نظام الملك من العمال والولاة أن يكونوا على صلة تامة بالمزارعين، ويتفقدوا أحوالهم، ويمدوا لهم يد المساعدة بتزويد من يحتاج منهم بالبذور والدواب، وأن يحسنوا معاملة الزراع، حتى لا يضطروا إلى هجر مواطنهم [7]، ويبدو أن الوزير نظام الملك استهدف من توزيعه الأراضي على رؤساء الجند كإقطاعات عدة أمور، وهي أنه أدرك أن معظم أفراد الجيش السلجوقي من قبائل مختلفة العناصر، فأراد أن يجعل تلك الجماعات تستقر في أراضي تقطع لها، فترتبط بالأرض، وتشعر بشعور المواطنة، مما يسهل على الدولة السيطرة عليها، وتقل المنازعات فيما بينها، مما يخفف أعباء الحكومة المركزية الإدارية والحربية، إذ تصبح تلك

(1) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 174.
(2) أل سلجوق للبنداري ص 55.
(3) طبقات الشافعية (317/4).
(4) تجارب الأمم (76/2، 97) مسكويه.
(5) العراق في العصر السلجوفي، حسين أمين ص 207.
(6) سياست نامة ص 69.
(7) نظام الوزارة في الدولة العباسيةً ص 181.

الإقطاعيات مستقلة بتنظيم أحوالها وتستطيع الوقوف في وجه من يحاول الاعتداء عليها.

كما أن سكن تلك الجماعات في أراضٍ زراعية محددة تدفعها إلى استصلاح الأرض وزراعتها والاستفادة من خيراتها، فتزدهر الزراعة التي تعد من موارد الثروة [1].

5- عناية نظام الملك بالمنشآت المدنيّة: كان للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي اهتمام كبير بالمنشآت المدنية، وخاصة دور العباد، فبنى كثيراً من المساجد في مختلف البلاد الخاضعة للسلاجقة[2]، كما اهتم بعمارة الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة النبوية، وأقام العديد من الرباطات بالعراق وفارس للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ورتب لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء [3]، وبنى الوزير نظام الملك مارستان بمدينة نيسابور[4].

6- أثره في النهوض بالحركة العلمية والأدبية: بذل الوزير نظام الملك جهداً واضحاً للنهوض بالحركة العلمية والأدبية وكان محباً لأهل العلم، كثير الإحسان إليهم، حتى أنه رتب للعلماء رواتب ثابتة تصرف لهم بانتظام [5]، وكان يقوم بصرف مرتبات ثابتة لاثنى عشر ألف رجل من رجال العلم في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية وكان مجلس الوزير نظام الملك يضم فحول العلماء في شتى فنون المعرفة، وقام بإنشاء المكتبات وزودها بالكتب، فكانت سوق العلم في أيامه، كما يقول ابن الجوزي قائمة والعلماء في عهده مرفوعي الهامة [6]، وقام بتأسيس المدارس النظامية، وقد انتشرت في كل من بغداد والبصرة والموصل وأصفهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وهراة وبلغ [7]، وقام نظام الملك بإنشاء هذه المدارس في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان[8] وسيأتي الحديث عنها في مبحث مستقل بإذن الله تعالى كان النظام - رحمه الله - يحب العلم وخصوصاً الحديث، شغوفاً به وكان يقول: إني أعلم بأني لست أهلاً للرواية ولكني أحب أن أربط في قطار [9] نقلة حديث رسول الله [10]، فسمع من القشيري، وأبي مسلم بن مهر بن يزيد، وأبي حامد الأزهري[11]، وكان حريصاً على أن تؤدي المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها فعندما أرسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبياتاً من الشعر يستحثه على المسارعة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة فقام نظام الملك وقضى على الفتنة [12]. وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء حيث يقضي

(1) المصدر نفسه ص 181.
(2) دول الإسلام (269/1) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 197.
(3) طبقات الشافعية (312/4) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 197.
(4) طبقات الشافعية (314/4) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 197.
(5) آل سلجوق ص 56 للبنداري.
(6) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 190.
(7) المدارس النظامية في بغداد، مجلة سومر ج2، المجلد التاسع ص 317.
(8) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 190.
(9) قطار: قافلة.
(10) البداية والنهاية (150/12).
(11) سير أعلام النبلاء (95/19).
(12) الكامل في التاريخ (276/6) الدولة العثمانية للصَّلاَّبي ص 35.

معهم جُلّ نهاره فقيل لـه: إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسي لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري، وأبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو علي الفارندي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه فعوتب في ذلك فقال: إنهما إذا دخلا عليَّ قال: أنت وأنت، يطروني، ويعظمونني ويقولون فيّ ما لا فيّ، فازداد بهما ما هو مركوز في نفس البشر، وإذا دخل عليّ أبو علي الفارندي ذكرني عيوبي وظلميّ، فأنكسر، فأرجع عن كثير مما أنا فيه[1].

7- شيء من عبادته وتواضعه ومدح الشعراء لـه: قال عنه ابن الأثير: وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً وجواداً عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرّاء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح[2] كان من حفظة القرآن، ختمه ولـه إحدى عشرة سنة واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفَّل [3]، وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت أمره بالأذان، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات وكانت لـه صلة بالله عظمية، وكان يواظب على صيام الاثنين والخميس، ولـه الأوقاف الدّارة الصدقات البارّة[4]. وقال ذات مرة: رأيت في المنام إبليس فقلت لـه: ويحك خلقك الله وأمرك بالسجود لـه مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجود لـه مشافهة وأنا أسجد لـه في كل يوم مرات فأنشد يقول:

مـــن لـــم يكـــن للوصـــال أهـــلاً ::: فكـــــل إحســـــانه ذنـــــوب

وقد أجلسه المقتدي مرة بين يديه وقال لـه: يا حسن رضي الله عنك فرضي أمير المؤمنين عنك[5].

وكان يتمنى أن يكون لـه مسجد يعبد الله فيه مكفول الرزق قال في هذا المعنى: كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد لعبادة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه [6]، ومن تواضعه أنه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خُراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرّب المقطوع إليه فأكل معه. وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه ويدنيهم[7]، ومن شعره:

بعـــد الثمـــانين لـــيس قـــوة ::: قـــد ذهبـــت شـــهوة الصـــبوة

(1) البداية والنهاية (129/16).
(2) الكامل في التاريخ (337/6).
(3) سير أعلام النبلاء (96/19).
(4) البداية والنهاية (126/16).
(5) البداية والنهاية (127/16).
(6) الكامل في التاريخ (338/6) الدولة العثمانية للصَّلاَّبي ص 3.
(7) الكامل (338/6).

كـــــأنني والعصـــــا بكَفـــــي ::: موســـى ولكـــن بـــلا نَبُـــوَّة [1]

وينسب إليه أيضاً:

تقـوس بعـد طـول العُمـر ظهـري ::: وداســـتني الليـــالي أيَّ دوس
فأمشـــي والعصـــا تمشـــي أمـــامي ::: كـــأن قوامهـــا وتـــر بقـــوس

وكان يتأثر بسماع الشعر فعندما دخل عليه أبو علي القومَسَاني في مرضة مرضها يعوده فأنشد يقول:

إذا مرضـــنا نُوينـــا كـــل صـــالحة ::: فـــإن شـــفينا فمنـــا الزيـــغ والزَلـــلُ
نرجـــو الإلـــه إذا خفنـــا ونســـخطه ::: إذا أمنـــا فمـــا يزكـــو لنـــا عمـــل

فبكى نظام الملك وقال: هو كما يقول[2]. وقد مدحه الشعراء ومما قالوا فيه:

إذا زاره العـــافي تهلـــل وجهـــه ::: وبشّـــره منـــه التبسّـــمُ والبشـــر [3]

وقالوا فيه:

مـــا خلـــق الله تعـــالى وجـــلّ ::: مثـــل وزيـــر الـــوزراء الأجّـــل
أروع كالنَّصـــــل ولكنَّـــــه ::: أمضـــى مـــن النصـــل إذا مـــا بســـل[4]

8- وفاتـه 485هـ: في عام 485هـ من الخميس في العاشر من شهر رمضان وحان وقت الإفطار، صلّى نظام الملك المغرب، وجلس على السَّماط، وعنده خلق كثير من الفقهاء والقرَّاء والصوفية، وأصحاب الحوائج فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند، وأخبار الوقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن استشهد هناك من الأعيان، ويقول: طوبى لمن لحق بهم، فلما فرغ من إفطاره، خرج من مكانه قاصداً مضرب حرمه فبدر إليه حدث ديلمّي، كأنه مُستميح أو مستغيث، فعلق به وضربه، وحمل إلى مضرب الحرم، فيقال: إنه أول مقتول قتلته الإسماعيلية " الباطنية"، فانبث الخبر في الجيش وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر، مظهراً الحزن، والنحيب والبكاء وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجود بنفسه حتى مات، فعاش سعيداً فقيداً حميداً [5]، وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه مماليك نظام الملك وقتلوه وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال: لا تقتلوا قاتلي، فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات [6] ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام ورثاه الشعراء بقصائد منهم مقاتل بن عطية حيث قال:

كـــان الـــوزير نظـــام الملـــك لؤلـــؤة ::: يتيمـــة صـــاغها الـــرحمن مـــن شـــرف
عـــزّت فلـــم تعـــرف الأيـــام قيمتهـــا ::: فرّدهـــا غيـــرة منـــه إلـــى الصـــدف

قال عنه ابن عقيل: بهر العقول سيرة النظام جوداً وكرماً وعدلاً وإحياء لمعالم الدين، كانت

(1) طبقات الشافعية (328/4).
(2) حول الأدب في العصر السلجوقي ص 128.
(3) المصدر نفسه ص 128.
(4) المصدر نفسه ص 128.
(5) طبقات الشافعية الكبرى (322/4، 323).
(6) المصدر نفسه (323/4)، سير أعلام النبلاء (95/19).

أيامه دولـة أهل العلم، ثم ختم لـه بالقتل وهو مارٌّ إلى الحج في رمضان فمات ملكاً في الدنيا ملكـاً فـي الآخرة رحمه الله [1]، وقيل: إن قتله كان بتدبير السلطان، فلم يُمهل بعده إلا نحو شهر [2].

* * *

(1) سير أعلام النبلاء (96/19).

(2) سير أعلام النبلاء (96/19).